ماهية اللغة وخصائص الوسط الناقل لها

د. محمد الخليفة الأسود

أستاذ جامعي ــ الزاوية / ليبيا

مقدمة :

يهدف هذا البحث إلى تحديد ماهية اللغة وذلك بالتفريق بينها وبين الوسط الذي تنتقل فيه، ثم بيان وتوضيح خصائص هذا الوسط لإبراز أهمية التمييز بين اللغة والوسط الناقل لها في الدراسات اللغوية الحديثة. وقد اهتم علماء اللغة الأوائل والمحدثون منهم بتعريف اللغة وتحديد ماهيتها فأبو الفتح عثمان بن جني (322 - 392 هـ) عرف اللغة بقوله «أما حدها فإنها أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم»[1]،وعرفها سابير Sapir (1884 - 1939) بقوله «اللغة وسيلة لتبادل الأفكار أو الشعور أو الرغبات مكتسبة بالتعلم ذات طبيعة إنسانية خالصة ، تؤدي وظيفتها بواسطة نظام من الرموز المنتجة اختياريا»[2].

وقد تعددت تعريفات اللغة تبعا لتعدد مجالات المهتمين بها ؛ فالأنثربولوجيون يرون أن اللغة مظهر من مظاهر السلوك الحضاري، وعلماء الاجتماع يحددون اللغة بأنها وسيلة اتصال بين أفراد المجتمع، أما الأدباء فيرونها وسطا فنياً يبدع فيه الشاعر والأديب، والفلاسفة يعرفون اللغة بأنها وسيلة لترجمة تجارب الإنسان ، أما عند المربين فاللغة مجموعة من المهارات تكتسب بالتعلم[3].

غير أن هذه التعريفات لا تحدد لنا ماهية اللغة إذ لا يتأتى ذلك إلا بالتفريق بينها وبين الوسط الناقل لها ولتوضيح هذا الفرق يمكن لنا سوق المثال الآتي : عندما نقارن نعتا عربيا مكتوبا بآخر منطوقا وننظر إلى أنها أشياء مادية مجردة غاضين النظر في البداية عن أنهما يدلان على معنى ؛ نلاحظ أنه ليس هناك شبه بينهما فالنص المكتوب يحتوي على مجموعة من أشكال خطية مرتبة على ورق أبيض والنص المنطوق عبارة عن ضجيج متتابع مختلف، وبالرغم من أن الفرق شاسع بين هذين النصين في الشكل إلا أن هذا الفرق يتلاشى عندما نتذكر أنهما يشيران إلى معنى ولهذا مهما اختلف شكلهما فإنهما يرمزان إلى مدلول واحد وهو اللغة العربية، فالنص المكتوب والمنطوق كلاهما لغة ضمن أوساط ناقلة مختلفة أحد هذه الأوساط يتكون من أشكال والآخر يتكون من أصوات، ويمكن أن نطلق على الأول الوسط اللغوي المرئي وعلى الثاني الوسط المنطوق ؛

(1) **الخصائص**، أبو الفتح عثمان بن جني. تحقيق محمد علي النجار. دار الكتاب العربي بيروت (ج 1)، ص 33.

(2) انظر : **Dictionary of language and linguistics.**

Hartmann and Stork. Applied science publishers. London. 1973. «Language».

(3) المصدر السابق.

إذن اللغة شيء يختلف عن الوسط الناقل له ويمكن تعريف اللغة مبدئيا بأنها نماذج وقوالب معنوية تحتذى ويمكن تصويرها صوتيا أو كتابيا فوزن الفعل الثلاثي المجرد في اللغة العربية «فَعَلَ» هو قالب معنوي يمكن نقله صوتيا أو كتابيا أو وضعه بطريقة خاصة يمكن أن يلمسها المكفوف فيستعمل اللغة بواسطتها. وسيبرز هذا البحث الفرق بين اللغة والوسط الناقل لها مميزا كلا منهما عن الآخر ومظهرا الجوانب والأنواع والخواص التي يمكن أن تكون مجال بحث في الوسط الناقل للغة.

1) الفرق بين اللغة والوسط الناقل لها :

اللغة يمكن أن تنقل بأوساط مختلفة لأنها قوالب ونماذج وأنماط وليست أشياء مادية كما هو الحال في الوسط الناقل، وعندما نفرق بين اللغة والوسط الناقل لها فإننا نفرق بين القالب والشيء المادي الذي يوضع فيه فهذا الشيء غالبا ما يكون منفصلا عن القالب ومتميزا عنه، ولهذا نستطيع القول بأن اللغة قالب أو نمط أو نموذج يحتذى وأن الوسط الناقل لها مادة تُشكَّل بحيث تكون مناسبة لهذا القالب أو النمط أو النموذج.

ومن مظاهر الفرق بين اللغة والوسط الناقل لها أنه بالإضافة إلى قابليته للتشكيل في أنماط ونماذج لنقل اللغة له طبيعته الخاصة ؛ فالكلمة المكتوبة بالاضافة إلى أنها كلمة فهي شكل مثل غيرها من الأشكال والكلمة المنطوقة بالإضافة إلى أنها كلمة فهي صوت كغيرها من الأصوات، والأوساط الناقلة لها الصفات التي يمكن أن يتصف بها كل شكل أو صوت ومن ضمن هذه الصفات الصفات الجمالية والفنية، إضافة إلى ذلك أن الكلمة المكتوبة أوالمنطوقة هي إنتاج إنساني «مهارة» لهذا فإن للوسط الناقل طبيعة أو صفة أخرى تنبع من كونه مهارة وإنتاجاً إنسانياً وهذه الطبيعة هي أن الوسط الناقل يحمل طابع الشخصية الإنسانية التي تستعمله وأغلب النشاطات الإنسانية المتعارف عليها والثابتة تكشف بطريقة غير مباشرة عن أشياء ذات أهمية في الإنسان مثل الحالة النفسية من سرور وغضب واشمئزاز كما تكشف عن المركز الاجتماعي والمنطقة الجغرافية التي نشأ فيها الشخص، فطبيعة الأوساط الناقلة للغة هي طبيعة المهارة الإنسانية من حيث إظهارها للخصائص الشخصية. فالوسط الناقل إذن ليس هو اللغة بل هو أداة نقلها فالصوت والكتابة ليستا اللغة بل هما أوساط تنتقل فيها أما اللغة فهي قوالب الصيغ المعروفة في كل لغة مثل قوالب صيغ الفعل الثلاثي المجرد في اللغة العربية[4].

2) جوانب البحث في الوسط الناقل :

للوسط الناقل جوانب كثيرة تستحق البحث والدراسة ومن هذه الجوانب ما يأتي :

أولا : الطريقة التي ينظّم فيها الوسط الناقل في قوالب ليكون أداة لنقل اللغة، ويدخل في ذلك الدراسات الصوتية بجميع أنواعها أي دراسة الصوت والمقطع والكلمة كما يتناول دراسة الخط وتطوره فمثلا في اللغة العربية يدرس رسم الحرف والإعجام وتاريخه وتاريخ إضافة الحركات وأنواعها والفرق بين رسم المصحف والكتابة العادية وما إلى ذلك مما يتعلق بالطريقة التي تجعل الوسط الناقل أداة لنقل اللغة.

ثانيا : إبراز الطبيعة الفنية الجمالية للوسط الناقل، فبالرغم من أن الغرض الأساسي من استخدام

(4) انظر : **Elements of general phonetics.** David Abercrombie Aldine. Atherton. 1967. Chicago. «Language and medium» p. 1-19.

Semantics. John Lyons. Cambridge University Press. Cambridge. Vol.(1) «Language and medium» p. 67-70.

الوسط الناقل للغة هو نقل اللغة من المرسل إلى المستقبل إلا أن الوسط الناقل له خصائص فنية ترجع إلى طبيعته الأولى قبل استعماله كوسط لغوي فالصوت من حيث هو صوت له نواح جمالية فنية قد تظهر في اللغة وذلك واضح في الغناء والخطب الحماسية فاللحن في الأغنية ورفع الصوت في الخطبة الحماسية لا يتوقف عليهما نقل المعنى وإنما يرجعان إلى خواص جمالية وفنية ترجع إلى طبيعة الوسط الناقل الأساسية، وكذلك الحال بالنسبة للوسط الناقل المكتوب فقد نجد الآية القرآنية الكريمة مكتوبة في المصحف فنقرأها ونفهم ما فيها ونجد نفس الآية معلقة ومكتوبة في جدار بطريقة فنية تروق للناظر فنفهم ما تدل عليه ونشعر بشيء آخر زائد عن المعنى وهو الناحية الجمالية في الخط الذي رسمت به هذه الآية الكريمة.

ثالثا : علاقة الوسط الناقل بالأوساط الأخرى، ويبحث في هذا الجانب تطور الوسط الناقل من مسموع إلى مرئي إلى ملموس حيث إن اللغة بدأت بالوسط المسموع ثم اخترعت الكتابة ثم اخترع حديثا وسطا جديداً وهو الوسط الملموس «طريقة براي Braille»[5] بالنسبة للمكفوفين وأنه في المستقبل ربما تستحدث أوساط لغوية أخرى.

رابعا : علاقة الوسط باللغة الناقل لها، يبحث في هذا الجانب مدى تمثيل الوسط الناقل للغة التي ينقلها، فالوسط المسموع في الغالب ما يمثل اللغة تمثيلا دقيقا بينما الوسط الكتابي قد يختلف عن ذلك، فالكتابة في اللغة العربية كثيرا ما نجدها خالية من الشكل مما يجعلها ناقصة نقصاً قد يؤدي إلى أن يخطىء القارىء في بعض المفردات.

خامسا : نوع حركات الأعضاء المستخدمة عند إنتاج الوسط الناقل، فالدراسة في هذا الجانب تتناول جهاز النطق في الانسان وجهاز الاستقبال وتتناول وسائل الوسط الناقل الكتابي مثل القلم والآلة الكاتبة وغيرهما مما يعتبر من أهم وسائل إنتاج الوسط المكتوب.

سادسا : مدى استعمال الوسط الناقل كمؤشر لبيان طبيعة الشخص الذي يستخدم اللغة، وتنصب الدراسة في هذا الجانب على بيان الحالة النفسية التي يمكن أن تظهر عند استخدام المتكلم أو الكاتب للغة، فعندما يتكلم الشخص فقد تحدد منطقته الجغرافية أو طبقته الاقتصادية أو الاجتماعية أو جنسه تبعا لكلامه.

3) أنواع الأوساط الناقلة :

من أنواع الأوساط الناقلة الوسط المسموع والوسط المرئي «المكتوب» ثم الوسط الملموس وهو ما يستخدمه المكفوفون عند استعمالهم الكتابة ثم الوسط المعتمد على حاسة الشعور بتنوع الضغط الذي لا يزال تحت التجربة والتطوير[6]. وكل الأوساط الناقلة تشترك في شيء واحد مهم وهو توسطها بين المرسل والمستقبل للغة، لهذا فإن كل وسط من الأوساط الناقلة له صلة بنوعين اثنين من النشاط الانساني وهذان النوعان هما: نشاط إنتاجي «إرسال» ويكون في مصدر الوسط الناقل، ونشاط إدراكي «استقبال» وبواسطة هذا النشاط يفهم الوسط وتنتقل اللغة، والنوع الأول يتطلب تحرك بعض أعضاء النطق أما الثاني فوظيفته إدراك المعنى فقط. وعندما يتصل شخص ما بشخص آخر

---

(5) انظر : Semantics. Vol(1). JOHN Lyons. p. 68.

(6) انظر : Elements of general phonetics. David Abercrombie. p.3

بواسطة اللغة فنشاط الشخص الأول لا يدرك من قبل الشخص الثاني مباشرة وإنما المدرك والمؤثر في عملية الاتصال هو نتيجة هذا النشاط أي المهارة سواء أصواتا كانت أم كتابة. والوسط المسموع يرسل بواسطة أعضاء تختلف عن الوسط المكتوب كما أن كلا منهما يستقبل بجهاز استقبال يختلف عن الآخر ؛ فالوسط الناقل المسموع يتكون بواسطة أعضاء النطق مثل الشفتين واللسان والحنجرة والرئتين مع بعض الأعضاء الأخرى وجهازه المستقبل الأذن، أما الوسط المرئي «المكتوب» فيتكون بواسطة تحريك اليد والأنامل في استخدام الآلة الكاتبة وجهازه المستقبل العين.وهذان الوسطان اللذان يمكن إطلاق اصطلاحي الوسط السمعي والوسط المرئي عليهما، نسبة إلى جهاز الاستقبال لكل منهما، من أهم الأوساط وأكثرها استعمالا في نقل اللغة ولكن قد تستعمل بعض الأوساط الناقلة الأخرى، لأنه من الناحية النظرية يمكن تصور وسط ناقل لكل حاسة من حواس الانسان الخمس، غير أنه من المستبعد جداً أن تستعمل حاسة الشم أو حاسة الذوق كمستقبل لوسط لغوي لأن الصعوبات التي تعترض تنظيم وسط ناقل مشموم أو وسط ناقل مُذاق كبيرة جدا.

هناك حاسة واحدة أضافت وسطا لغويا آخر للأوساط السالفة الذكر وهذه الحاسة هي حاسة اللمس وهذا الوسط الناقل يستعمل من قبل المكفوفين وطريقة إنتاجه في إحداث نقاط بارزة في الورق على أن تكون هذه النقاط منظمة تنظيما مصطلحاً عليه لأداء المعنى فيتتبعها الشخص المكفوف لمساً بأنامله لقراءة ما فيها وهذا يسمى الوسط الملموس. والحاسة الأخرى التي يمكن أن تكون جهاز استقبال لوسط لغوي رابع هي حاسة الشعور بتنوع الضغط فالتجارب تجرى الآن في كثير من مناطق العالم لاستعمال هذا الوسط اللغوي وقد سجلت بعض النجاحات في اختراع ما يسمى «بقفاز السمع» وهو عبارة عن أداة توضع في اليد وتحدث نوعا من الضغط المتنوع على الأصابع هذا التنوع يكون في أنماط مختلفة وبواسطة هذه الأنماط يمكن نقل اللغة ولكن لا يزال هذا الاختراع في طور التكوين ؛ ونشاط جهاز الارسال للوسط الناقل المكتوب قد يكون باستخدام أداة مساعدة مثل استعمال القلم في الكتابة، كما أن الاستقبال في الوسط المنطوق يكون أحيانا بواسطة مساعد مثل أداة السمع[7].

4) خواص الوسط الناقل :

أ ــ الخواص الحَيْزيّة[8] :

حيزية الوسط الناقل معناها الفراغ الذي يشغله هذا الوسط سواء كان ذلك فراغا مكانيا مثل الوسط المكتوب «المرئي» فإنه لا بد من أن يكون في ورق أو ما يشبهه من المكان أو الوسط المسموع فهو لا بد من أن يستغرق وقتا لنطقه.

وقد عاش الانسان على أديم هذه البسيطة زمناً طويلا ولم يستعمل إلا وسطا لغويا واحدا للتفاهم والاتصال بأخيه الانسان وهذا الوسط هو الوسط المنطوق، غير أن تقدمه الحضاري أحوجه إلى اختراع وسط آخر هو الوسط المكتوب «المرئي» ولأهمية اللغة ودورها الخطير في الحضارة البشرية ولأنها نموذج يحتذى ولأن الوسط الناقل مادة تشكل على هذا النموذج فإن ذلك اقتضى أن تكون طبيعة الوسط

(7) المصدر السابق نفس الصفحة.

(8) الحيزية مشتقة من «الحَيْز» وهو تخفيف «حَيِّز» والحيّز ما انضم إلى الدار من مرافقها، واستعير هنا لمعنى شغل الوسط الناقل فراغا مكانيا أو زمانيا.

الناقل مناسبة لطبيعة اللغة موفية بغرضها ؛ ويظهر ذلك في انقسام الوسط اللغوي إلى وسط مرئي ومسموع ولكل وظيفته التي يمتاز بها عن غيره، فالوسط المرئي يتطلب عملا ووقتا لانتاجه ولكنه دائم وقابل للنقل لأي مكان، وفي تراثنا العربي الأصيل كثير من الاشارات إلى مميزات هذا الوسط منها ما أورده الجاحظ في كتابه الحيوان حيث يقول : «فأما الخط فما ذكر الله عز وجل في كتابه من فضيلة الخط والأنعام بمنافع الكتاب قوله لنبيه عليه السلام ﴿إقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم علم الانسان ما لم يعلم﴾ وأقسم به في كتابه المنزل على نبيه المرسل حيث قال ﴿ن. والقلم وما يسطرون﴾، ولذلك قالوا (القلم أحد اللسانين)، كما قالوا : (قلة العيال أحد اليسارين) وقالوا (القلم أبقى أثراً واللسان أكثر هذراً)وقالوا (اللسان مقصور على القريب الحاضر، والقلم مطلق في الشاهد والغائب) وهو للغائب الحائن «الهالك» مثله للقائم الراهن، والكتاب يقرأ بكل مكان ويدرس في كل زمان واللسان لا يعدو سامعه ولا يتجاوز إلى غيره»[9].

هذا بالنسبة للوسط المكتوب «المرئي»، أما الوسط المسموع فهو سريع الزوال ومحدود المدى ولكن إنتاجه سهل وهذه هي الطبيعة المتوقعة من وسط حيزي الزمان، فطبيعة الوسط المرئي تؤهله لأشياء مثل الاعلانات الرسمية والتسجيل الوثائقي بينما طبيعة الوسط المنطوق تؤهله لأن يستعمل في متطلبات الحياة الانسانية اليومية العادية.

ولهذا فإن العمى والصم والبكم تعتبر من العوائق اللغوية الخطيرة فالأعمى ليس لديه القدرة على استقبال الوسط المرئي والأصم الأبكم لا يستطيع استقبال الوسط الناقل بنوعيه «المرئي والمسموع» ولذلك فقد فكر الانسان في اختراع أوساط ناقلة أخرى تستقبلها حواس غير السمع والنظر، فالوسط الملموس قد اخترع حديثا ليكون عوضا عن الوسط المرئي بالنسبة للمكفوف، كما اخترع الوسط المدرك بحاسة الشعور بتنوع الضغط ليكون عوضا عن الوسط المنطوق بالنسبة للأصم الأبكم[10].

ب – *الخواص الاشارية :*

إن قابلية الوسط الناقل، لتصنيفه إلى قوالب وأنماط حيزية، تفوق بكثير ما تتطلبه اللغة من هذه القوالب والأنماط ونرى ذلك واضحا في اختلاف اللغات في تكوين قوالب وأنماط مختلفة من الوسط الناقل الواحد فنجد مثلا أن هناك مئات الآلاف من أنواع الحروف الهجائية في العالم أساسها وسط لغوي واحد هو الوسط المنطوق كما أن هناك طرقا مختلفة لنطق اللغات تبعا لاختلاف وتنوع هذه اللغات، وكل نوع من أنواع الحروف الهجائية أو طريقة من طرق النطق في اللغات المختلفة تعتبر جزءا ضئيلا استمدّ من القوالب والأنماط العديدة التي يحتويها الوسط الناقل للغة، ونظرا لعدم استنفاذ نماذج وإنما الوسط الناقل في اللغة فإنه في الغالب ما يحتوي على أشياء لا تتعلق بالتفاهم اللغوي وهذه الأشياء الاضافية في الوسط الناقل لها وظائف أخرى قد تفوق الوظيفة الأساسية للوسط.

فالوسط الناقل ليس شيئا ماديا فحسب وإنما هو مهارة «شيء صنع بواسطة الانسان» ومن هنا استمد الوسط الناقل وظيفة أخرى غير لغوية لها دور كبير في التأثير على العلاقات الانسانية، فعندما نقابل

(9) **الحيوان**. الجاحظ. تحقيق عبد السلام هارون. ج (1)، ص 43، مصطفى البابي الحلبي وشركاؤه.

(10) يعتمد هذا البحث في التفريق بين اللغة والوسط الناقل لها على ما كتبه «David ABERCROMBIE» 1967: في كتابه «Elements of general phonetics» وبالأخص في مقدمته «Language and Medium». وعلى ما كتبه «John Lyons» 1977 في كتابه «Semantics» ج (1) وبالأخص في الفصل «3.3. Language and medium»

شخصا ما لأول مرة فإن رأينا حول هذا الشخص يتوقف إلى حد ما على نوع الحركات التي يستعملها أثناء مشيه أو أكله أو إيمائه وهكذا فنحن نعتبر عادات الناس في الحركة دليلا على شخصياتهم — وقد نكون على وعي أو على غير وعي في هذا الاعتبار — وأنواع الحركات التي تصدر من الانسان أثناء الكلام وأثناء الكتابة لها نفس الدلائل السالفة الذكر ولكن في هذه الحالة لا نأخذ الدلائل والعلامات من ملاحظة نفس الحركات بل نأخذها من نتائج هذه الحركات وهي المهارة «الوسط الناقل» فالوسط الناقل في شكله المادي ذو طبيعة حركية وربما سمي إيماءا فالكتابة قد تسمى إيماءا منقوشا والصوت قد يسمى إيماءا منطوقا وكل منهما يحمل علامات ودلائل على شخصية الكاتب والمتكلم، فالعلامة من هذا النوع ربما سميت إشارة والصور التي يحتويها الوسط الناقل قد تسمى صور الوسط الناقل الاشارية ليفرق بينها وبين الصور والعلامات اللغوية فمن الأمثلة على ذلك في لغتنا العربية ما عرف عند العرب من «كشكشة بني أسد» وهي : إبدال الشين من الكاف في حالة خطاب المؤنث كقولهم : عليش وبش في عليك وبك»[11] فتغير الشين بالكاف أضاف معلومة ليست لغوية بل معرفة أن المتكلم ينتسب إلى قبيلة بني أسد. وبعض الصور الاشارية الموجودة في النطق أو الكتابة تكتسب بواسطة التعليم ولهذا فإن الناس متساوون فيها، وبعضها لا تكتسب بالتعليم وعليه فإنها فردية شخصية «مختصة بالشخص نفسه» والصور الاشارية المشتركة بعضها مشترك بين فئة قليلة من الأشخاص وبعضها مشترك بين جمع كبير وبعضها مشترك بين سكان البلاد جميعا والبعض الآخر ربما يشترك فيها سكان بلدين مختلفين هذا وليس هناك شخص يتكلم بطريقة واحدة في كل الأوقات لهذا ففي الوقت الذي يستعمل فيه الشخص في كتابته ونطقه بعض الصور الاشارية دائما هناك صور إشارية تستعمل فقط من وقت لآخر.

وقد نشأ علم خاص لمعرفة الصور الاشارية الكتابية وهو «علم دراسة الخط[12]» وقد اهتم علماء النفس اهتماما كبيرا بهذا العلم وبرز فيه كثير من الخبراء ويستطيع هؤلاء تعيين جنس وعمر وطبيعة الشخص من كتابته. ويركز خبراء الخطوط جل اهتمامهم على الصور الاشارية الخاصة بالشخص غاضين النظر عن تلك الصور الاشارية التي يشترك فيها مجموعة من الناس والتي تنبىء عن أن كاتبها عضو في هذه الجماعة مثلا مع أن هذه الصور في الغالب ما تكون موجودة في الكتابة خصوصا تلك التي تشير إلى جنسية الشخص وموطنه.

هذا وليس هناك مصطلح خاص بدراسة وترجمة الصور الاشارية الخاصة بالوسط المنطوق وربما يكون السبب في ذلك هو كثرة المزاولين لاكتشاف هذا النوع من الصور الاشارية وبداهته مقارنة بالنوع الأول فالخبراء في هذا المجال غير محتاجين إلى تعيين لأنهم كثرة لا تحصى فمن السهل على أي شخص تعيين جنس وعمر المتكلم من كلامه. كما أنه ليس من الصعب على أي شخص كذلك وجود دلائل في الكلام على شخصية وشعور المتكلم.

والصور الاشارية الخاصة بالوسط المنطوق التي تعتبر في غاية الأهمية مقارنة بالصور الاشارية الخاصة بالوسط المرئي هي تلك الصور الاشارية المنطوقة التي تدل على طبيعة الشخص الاجتماعية

(11) **تاج اللغة وصحاح العربية**، إسماعيل بن حماد الجوهري. مادة : كشش.

(12) يختص هذا العلم بالأشياء التي تميز شخصا عن شخص آخر عن طريق الكتابة وقد سمي هذا العلم «Chirography».

وهي الصور الاشارية التي لها القدرة على الاختراق أكثر من أي سلوك إنساني آخر ؛ فعندما نكون في حديث مع أشخاص نعرفهم فإننا نكيف كلامنا باستمرار ليتناسب مع شعورهم وذلك بترجمة الاختلافات الظاهرة في كلامهم، وكذلك بواسطة الصور الاشارية المنطوقة نستطيع الحكم على الغرباء عند علاقاتهم من طريقة كلامهم وليس من المواضيع التي يتحدثون عنها ؛ وفي تراثنا قد لاحظ الجاحظ الفرق بين كلام الاعراب وكلام العوام وأن لكل منهما سمات خاصة يجب المحافظة عليها إن أريد نقل المعنى سليما وأريد له التأثير في السامع وهذه السمات هي ما نسميه الآن بالصور الاشارية ؛ يقول الجاحظ «ومتى سمعت... بنادرة من كلام الاعراب فإياك أن تحكيها إلا مع إعرابها ومخارج ألفاظها فإنك إن غيرتها بأن تلحن في إعرابها وأخرجتها إخراج كلام المولدين والبلديين أخرجت تلك الحكاية وعليك فضل كبير، وكذلك إذا سمعت بنادرة من نوادر العوام وملحة من ملح الحشوة والطُغام فإياك وأن تستعمل فيها الاعراب أو تتخير لها حسنا أو تجعل لها من فيك مخرجا سريا فإن ذلك يفسد الامتاع بها ويخرجها عن صورتها ومن الذي أريدت له، ويذهب استطابتهم إياها واستملاحهم لها»[13].

أنواع الصور الاشارية :

للصور الاشارية أنواع كثيرة نذكر منها ثلاثة أنواع على سبيل المثال لا الحصر :

(1) ــ الصور التي تشير إلى عضوية الشخص في الجماعة :

كل المتكلمين في اللغات الانسانية لهم صور إشارية تحدد مناطقهم الجغرافية أو مراكزهم الاجتماعية، ففي الوطن العربي نجد أن هناك صورا إشارية واضحة تميز العراقي عن المغربي واليمني عن التونسي فهذه الصور الاشارية يطلق عليها اسم الصور الاشارية الجغرافية نسبة إلى المنطقة الجغرافية التي يقطنها المتكلم. وبالاضافة إلى الصور الاشارية المعينة لمنطقة الشخص الجغرافية نجد صورا إشارية من نوع آخر ففي بعض المجتمعات نرى أن المرأة لها طريقة خاصة في الكلام تختلف عن الرجل وفي مجتمعات أخرى نجد أن الصور الاشارية في كلام الشخص راجعة إلى حرفته المعينة. وكل الصور الاشارية الخاصة بمنطقة المتكلم أو المبينة لحرفته مكتسبة وتعتبر من العلامات الدائمة المميزة لنطق الشخص . ومن المفيد في هذا المجال أن نطلق اصطلاح «لهجة» على مثل هذه الصور الاشارية جميعا لهذا يمكن تعريف اللهجة بأنها مظهر من مظاهر النطق الشخصي يفصل المتكلم عن اللغة المشتركة. ولا يوجد شخصان متحدان في النطق ولكن توجد مجموعة من الناس مشتركة في لهجة واحدة هؤلاء الأشخاص المشتركون في تلك اللهجة يسمون «مجموعة لهجية» وأعضاء المجموعة اللهجية يوحدهم الشعور بأن الصور الاشارية أداة جمع لهم وليست أداة تفريق.

(2) الصور الاشارية الخاصة بطبيعة الشخص :

من الصور الاشارية ما ينبيء عن خواص شخصية وهذه الصور الاشارية الشخصية تمكننا من معرفة الشخص بمجرد سماع صوته سواء كان هذا الصوت بواسطة الهاتف أو في الظلام، وهذه الخواص الشخصية غير مكتسبة بل ناتجة في أغلب الأحيان عن أسباب طبيعية شخصية ؛ لهذا فإن الشخص ليس له دخل فيها فالصور الاشارية المميزة لجنس الشخص

(13) البيان والتبيين .ج(1)، ص 146.

وعمره وكذلك التي تظهر العاهات الموجودة في جهاز النطق مثل «تشقق الغار» تعتبر من هذا النوع.

(3) الصور الاشارية التي ليست ثابتة في النطق :

هذا النوع من الصور الاشارية يعتمد وجوده في الكلام على حالة المتكلم الجسمية والعقلية فنستطيع بسهولة مثلا تمييز صوت المتكلم الذي يكون فمه مشغولا بدون النظر إليه ومثل هذه الصور ما يشير إلى شدة تعب الشخص أو شدة فرحه، وأبرز الصور الاشارية في هذا النوع هي تلك الصور التي تظهر نوعا من أنواع الشعور النفسي مثل : الفرح، أو الغضب أو الازدراء أو التعاطف أو الشك أو كل ما له علاقة بالشعور ويمكن أن تدل عليه النغمة الكلامية، وهذا النوع من الصور الاشارية يهم المتخصص في اللغة وغير المتخصص فيها لأن هذه الصور قد تحمل بقصد أو بغير قصد انطباعات تختلف اختلافا تاما عما تحمله الكلمات المستعملة في ذلك المقام. وفي العادة نستطيع أن نفهم تلك الصور الاشارية المؤثرة من الأشخاص الذين نشترك معهم في الثقافة وغالبا ما يكون هذا الفهم دقيقا ولكن فهمنا للصور الاشارية من ثقافات أخرى غالبا ما يكون مشكوكا فيه.

ج ـــ الخواص الفنية :

للوسط اللغوي الناقل خواص كثيرة أخرى ليس لها دور لغوي ولا تنقل صورا إشارية ومن الأمثلة على ذلك حجم الأشكال المستعملة في الوسط ودرجة قوة الصوت المنطوق فالمطلوب في العملية الكلامية هو كون شكل الحروف مقروءا وأن الصوت مسموعا وفوق ذلك يكون الكاتب أو المتكلم حراً في أن يعمل الأشكال التي يريدها في الكتابة والأصوات التي تناسب المقام.

ومع أن خصائص الوسط الناقل الفنية مستقلة عن خصائصه اللغوية أو صوره الاشارية غير أن اهتمام الناس بالخصائص الفنية كبير جدا، وهذا الاهتمام منصب على الناحية الموسيقية في الوسط المسموع وعلى الناحية التخطيطية في الوسط المكتوب، وكل الثقافات الانسانية قد اهتمت بتحسين الخط وجعلته فنا قائما بذاته، فالخط الصيني يعتبر رمزاً فذا لاهتمام الانسان بالكتابة كفن جمالي[14] وكذلك يظهر الاهتمام بالخط والتفنن فيه في اللغة المصرية القديمة «الهيروغليفية» وأحيانا تغلب الناحية الجمالية في الخط على وظيفته الرئيسية ؛ وهي نقل اللغة فبعض أشكال الخط العربي جميلة جدا ولكن إلى حد أنه يصعب قراءتها في بعض الأحيان. ويحتوي الوسط الناقل المسموع على قدر كبير من الأصوات المجردة عن الدلالة غير أنها تحمل طابعا موسيقيا فنيا تستدعيه الحاجة أحيانا، ويتمثل هذا الطابع في تنوع درجة الصوت وفي اتساق الأصوات كذلك قد يحتوي على تغيرات صوتية تستغل في نواح فنية كثيرة منها السجع والجناس. وقد استغلت هذه النواحي الفنية في الوسط الناقل قديما من قبل الشعراء في كل اللغات وهي الآن محل اهتمام دور النشر والدعاية والسياسة في العالم.

وللشعراء والخطباء والخطاطين القدرة على التفنن في الوسط الناقل وإظهاره بمظهر فني رائع لا يستطيع مستعمل اللغة أو الكاتب العادي تقليده وكون استعمال وسط ناقل مع لغة أجمل منه أو أوضح من كونه مع لغة أخرى موضع خلاف بين العلماء ويجري هذا الخلاف على وضع الكلمة مع أختها في اللغة الواحدة وهل تفضل إحداهما على

(14) انظر : Elements of general phonetics. David Abercrombie. p. 10.

الأخرى تبعا لاستعمالها في وسط دون آخر.

وفي واقع الأمر فإن تمييز بعض الأوساط عن بعض من الناحية الفنية يرجع إلى الذوق الشخصي للفرد وقد اختلف العلماء كثيرا في التفضيل بين الأوساط المنطوقة فهي من أكثر الأوساط خضوعا للتأثر بالذوق والأسلوب والبيئة فمثلا هل أصوات اللغة الفرنسية أجمل من أصوات لغة «زولو»[15]، وهل لهجة أحد فقراء لندن مثل لهجة ضابط في الجيش البريطاني أو مثل لهجة صياد سمك ؟ فإذا كان هناك فرق فلماذا ؟

ونظرا لأن هذه المسائل عادة ما تناقش مناقشة غير موضوعية لهذا من الصعب الوصول فيها إلى رأي حيادي فتبقى دائما خاضعة للرأي الشخصي. ومن غير شك فإن التذوق الفني في الوسط الناقل لا يعتمد على الصوت أو الشكل وإنما اعتماده في الغالب يكون على محض الصدفة أو ما يعتاده الانسان.

(5) اصطلاحية الوسط الناقل :

يرى علماء اللغة أن الرموز اللغوية هي رموز اصطلاحية اعتباطية بمعنى أنه ليس هناك سبب منطقي يجعل الوسط اللغوي «المنطوق أو المسموع» على شكل معين فالأشكال التي عليها الأوساط اللغوية الناقلة هي وليدة الصدفة والاتفاق فقط وهذا مثل قولنا إنه ليس هناك علاقة بين الوسط الناقل والمعنى الذي يحمله وفي الحقيقة عندما نكون على صلة وثيقة بلغة ما مثل صلتنا بلغتنا الأم فإنه من الصعب تصور أن أصوات هذه اللغة اعتباطية لأننا نعتقد بأن المعاني مطبوعة في أصوات تلك اللغة أو في أشكال الكتابة فكأنه هناك علاقة عضوية بين الأوساط الناقلة والمعاني. وشعور المتكلمين للغة معينة بوجود هذه العلاقة هو شعور عميق في نفس الشخص لا يستطيع الفكاك منه، ونفس الشعور حمل بعض الانجليز على معارضة إصلاح الكتابة في اللغة الانجليزية وذلك خوفا من تبدل معاني الكلمات وشعورا منهم بأن الأصوات الموجودة في الكلمة بالرغم من أنها لا تُنْطَق لها دخل في فهم المعنى ولهذا يجب إبقاؤها. ولكن رغم قوة هذه المعارضة فإن حجتها واهية فهناك مثلا ثلاثة ألفاظ تعني الحصان في اللغة الانجليزية «pferd» «cheval» «horse» وليس هناك أي سبب منطقي لاشارة هذه الكلمات إلى الحيوان المعروف دون غيره، لهذا فإن اعتباطية الاشارات اللغوية يجب أن تعتبر أحد الأسس العامة لعلم اللغة الحديث.

وبالرغم مما ظهر لنا من اعتباطية الوسط الناقل إلا أننا أحيانا قد نجد أن بعض الأوساط الناقلة لها علاقة بالمعنى وذلك عندما يكون الوسط الناقل هو المعنى ذاته وهذا قليل في اللغة مثل كلمة خرير الماء وأزيز القدر فالأصوات التي ننطقها في كلمتي خرير وأزيز هي نفس الأصوات التي يحدثها الماء في جريه أو غليانه وفي هذه الحالة نجد أن العلاقة بين الوسط اللغوي والمعنى ليست اعتباطية وإنما هي علاقة حسية والكلمات التي تشبه أصواتها معانيها تسمى «Onomatopeia» وفي الظاهر أن العلاقة هنا طبيعية بين الوسط الناقل ومعنى هذه الكلمات فالربط بين اللفظ والمدلول يحصل بمجرد النطق بالكلمة ولكن نجد أن مثل هذه الكلمات تختلف في النطق باختلاف اللغات مما يدل على أن وضع هذه الألفاظ للدلالة على هذه المعاني وضعا اعتباطيا أيضا.

ولا يوجد اصطلاح خاص بالكلمات المكتوبة التي تشابه أشكالها معانيها ولكن ليس من الصعب تصور العلاقة بين الشكل والمعنى في تلك الكلمات فإذا كتبنا في جملة كلمتين إحداهما تدل على اللون

(15) «زولو» «zulu» منطقة في جنوب إفريقيا تشرف على المحيط الهندي.

الأخضر والأخرى تدل على اللون الأحمر وكتبنا الكلمة الأولى بالحبر الأخضر والثانية بالحبر الأحمر فإننا نجد أن شكل هذه الكلمات يدل على معانيها ونجد أن العلاقة الوطيدة هنا بين الوسط الناقل في الكلمتين وبين المعنى مثل العلاقة الوطيدة بين الصوت والمعنى في «Onomatopeia». وفي الكتابة العربية من الصعب وجود العلاقة بين شكل الكلمة ومعناها ولكن في بعض اللغات الأخرى فإن شكل الكلمة ينم عن معناها ويوجد هذا في اللغة الصينية واللغة المصرية القديمة[16].

والوسط الناقل المنطوق له أحيانا تأثير عاطفي دقيق فهو ليس مجرد أصوات تردد في الهواء فأجزاء الكلمة أو بعض الأصوات المفردة فيها قد تكون له دلالة تؤثر في معنى تلك الكلمة. ولكن في الغالب لا نعرف كيف ولماذا اكتسب ذلك الجزء من الكلمة تلك الدلالة، ومن الأمثلة على ذلك أنه لوحظ في بعض اللغات أن تغيير صوت اللين قد يؤدي إلى تغيير في معنى الصفة، فالصفة التي تعني الصغر نجد فيها الكسرة والصفة الدالة على الكبر توجد فيها الفتحة، وذلك واضح في الكلمات الانجليزية «slit»,«slot» «clink», «clank»[17].فهذه الكلمات متشابهة في اللفظ ومتقاربة في المعنى. وقد لوحظ أن تأثير هذه الأصوات راجع إلى حركة أعضاء النطق التي تصدر منها هذه الأصوات وليس إلى الأصوات ذاتها، فاللسان يترك فراغا صغيرا في الفم عند نطق الكسرة ولكنه يترك فراغا كبيرا في نطق الفتحة.

6) العوامل المساعدة في إنتاج الوسط الناقل :

عرفنا مما سبق أن الوسط اللغوي يعتمد على نشاطين مهمين هما : الارسال والاستقبال وقد أشرنا إلى أن الارسال قد يؤدي أحيانا بأدوات مساعدة فقد غلب استعمال القلم عند إنتاج الوسط المرئي عبر العصور التاريخية للكتابة وفي بعض الأحيان قد تستخدم الأدوات المساعدة على إنتاج الوسط المسموع مثل مكبر الصوت، والاختراعات الحديثة أدخلت كثيرا من التحسينات في الأدوات المساعدة وذلك مثل الآلة الكاتبة بنوعيها اليدوي والكهربائي وآلات الطباعة والبريد المصور والآلات التصوير وغيرها. والأدوات المساعدة هي وسائل يستخدمها الانسان لإنتاج هذا الوسط. فالقلم يعتبر أداة مساعدة لليد وامتدادا لها ومكبر الصوت يعتبر عاملا مساعداً لجهاز النطق وامتدادا له فحركة أعضاء النطق هي الأساس في تكوين وإخراج الوسط الناقل ؛ والتقدم التكنولوجي قد أثر في الأوساط اللغوية كتأثيره في جوانب الحياة الأخرى فهذا التقدم أضاف اختراعات مختلفة في عالم الاتصالات وهذه المخترعات ليست أدوات فقط بل هي آلات متقدمة على درجة كبيرة من الدقة وهذه الوسائل مختلفة ومتعددة من آلات ميكانيكية إلى آلات إلكترونية وهي ليست أدوات، أي ليست مجرد امتداد لأعضاء النطق أو أعضاء الكتابة، بل تدخل مباشرة بين الوسط الناقل وبين حركة الأعضاء المنتجة له ؛ ومن أوضح الأمثلة على ذلك اختراع جهاز التسجيل. ويمكن تقسيم هذه الوسائل الآلية إلى قسمين أحدهما يتدخل في إنتاج الوسط الناقل مثل الآلة الكاتبة فهي تجعله إنتاجا غير مباشر، والآخر يتدخل بين الوسط وبين جهاز الاستقبال وذلك مثل آلة التسجيل وفي كلا الحالتين السابقتين فإن الوسط لم يعد يدرك

(16) لمزيد من الاطلاع على التطابق بين الكتابة المصرية القديمة ومعانيها انظر : **الفلسفة اللغوية والألفاظ العربية**. جرجي زيدان. دار الهلال ص 169.

(17) «clank» تعني صوت إصدام قوي. «clink» تعني صوتاً رقيقا حادا، «slot» ثقب في الحديد عادة متوسط الاتساع، «slit» ثقب صغير عميق.

مباشرة، ففي النوع الأول نجد أن نشاط إنتاج الوسط الناقل قد استبدل فهو لا ينتج مهارة وإنما يشغل آلة والآلة هي التي تنتج الوسط الناقل فإذن لم يعد هذا الوسط يدويا.

وإنتاج الوسط الناقل ببعض هذه الوسائل يقتضي جهدا إلى حد فقد التلقائية واللاشعور التي يتسم بها نشاط إنتاج الوسط الناقل بالطريقة العادية. أما الإدراك للمعاني فلا يتأثر بهذه الوسائل فهي لا تختلف عن طريقة إدراك الوسط الناقل المرئي الذي أنتج مباشرة. والتقدم المهم والمتوقع في الوسائل المساعدة هو التطور في اختراع أجهزة تتدخل بين الوسط الناقل والنشاط الإدراكي لجهاز الاستقبال هذه الأجهزة لها القدرة على تغيير أي وسط إلى آخر فهي تستطيع تغيير الوسط المسموع وسطا مرئيا، مثلا ليقرأ أو الوسط المرئي منطوقا ليسمع فإذا اكتمل اختراع جهاز مثل هذا فإن باستطاعته الكتابة عندما نتكلم أمامه وباستطاعته كذلك تحويل الصفحات المكتوبة إلى نص منطوق، وبعض التقدم قد أحرز في هذا المجال ولكن مازالت هناك صعوبات كبيرة لم يُتغلَّب عليها غير أن الدلائل تشير إلى أن اختراع جهاز مثل ذلك ممكن فالأداة المسماة بقفاز السمع والتي ذكرت سابقا من الممكن أن تطور إلى جهاز مثل هذا؛ فالذي يؤهل هذه الأداة هو قدرتها على تحويل الوسط المنطوق إلى وسط متنوع الضغط. ولا شك أن مثل هذه الأجهزة إذا اكتمل بناؤها وأصبحت قادرة على تغيير الوسط سيستفيد منها المكفوفون والصم البكم استفادة كبيرة.

7) جوهر اللغة :

فيما مر من هذا البحث رأينا أن الصوت يعتبر وسطا لغويا وكذلك الكتابة وما يلبسه المكفوف عند القراءة ؛ إذن ما هي اللغة ؟

نعتقد أن اللغة استعداد في الشخص لتكوين نماذج وقوالب من الوسط الناقل يُنَمَّى، هذا الاستعداد، بواسطة التعلم والخبرة والتكرار، وهي شيء معنوي لا يمكن تصوره إلا بواسطة الوسط الناقل. فالمستعمل للغة العربية مثلا يجب أن يتمتع بقدرتين أساسيتين لضمان نجاح العملية الكلامية وهما :

أولا : أن يكون حاذقا لنماذج وقوالب المفردات العربية «الأوزان» أو قوالب ونماذج المركبات الإسنادية «الجمل».

ثانيا : أن يكون قادرا على وضع هذه النماذج والقوالب في وسطها الناقل الصوتي أو الكتابي أو غيرهما من الأوساط الناقلة.

وبالرغم من أن هناك فرقا بين اللغة والوسط الناقل لها إلا أننا لا نشعر بهذا الفرق إلا عندما نفقد أحدهما، فمثلا عندما نستمع إلى لغة غير معروفة لدينا مثل اللغة الصينية فإننا لا نشعر إلا بالوسط الناقل للغة ولكننا لا نستطيع إنتاجه ولا ترجمته، وقد يكون عجز الشخص في اللغة نفسها دون الوسط الناقل وذلك عندما يصاب الانسان بمرض في الدماغ أعراضه عدم القدرة على الربط بين المفردات وعدم فهم معانيها «aphasia»[18]. فالقدرة على إنتاج الوسط الناقل عند هذا الشخص لم تتأثر وإنما الذي فقده هو الاستعداد لربط النماذج والقوالب ذات الدلالة.

والفرق بين اللغة والوسط الناقل لها تضمنته إشارة فردينان دي سوسير إلى الفرق بين اللغة كقدرة

(18) انظر : **The New Webster Encyclopedic Dictionary** of the English Language. Alexander McQueen. and others, Consolidated Book Publishers. Chicago.

نفسية وبين الكلام كشيء فيزيائي يمكن الشعور به عند قوله «دراسة الكلام تحتوي على قسمين قسم جوهري موضوعه اللغة وهي جماعية في جوهرها ومستقلة عن الفرد وهذه الدراسة دراسة نفسية بحتة.

وقسم آخر ثانوي وموضوعه الجانب الفردي من الكلام أي اللفظ بما في ذلك عملية التصويت وهو نفسي فيزيائي ولا شك في أن هذين الموضوعين مرتبطان ارتباطا وثيقا وأن وجود أحدهما يقتضي وجود الآخر، فاللغة أمر ضروري لكي يكون اللفظ واضحا ومفهوما ولكي يحدث كل تأثيراته. إلا أن اللفظ ضروري لكي تقوم اللغة.... فثمة إذن تعلق متبادل بين اللغة واللفظ. واللغة هي في الآن نفسه أداة اللفظ ونتيجته على أن كل هذا لا يمنع أنهما شيئان، متميز أحدهما عن الآخر تمام التمُّيز[19]».

خلاصة البحث

في نهاية البحث يمكن لنا أن نستلخص النقاط الآتية :

أولا : يمكن لنا أن نعرف اللغة بأنها نماذج وقوالب معنوية لاتقوم إلا بالوسط الناقل الذي هو شيء مادي مثل الصوت أو الخط أو البروز في الورق أو غيره.

ثانيا : نشعر بالفرق بين اللغة والوسط الناقل لها عندما نفقد أحدهما؛ فعندما نستمع إلى لغة أجنبية فإننا نشعر بالوسط الناقل ولكن ليس لدينا القدرة على استعمال اللغة أي لانستطيع تكوين قوالب ونماذج منها. وعندما يصاب الانسان بمرض في الدماغ فإنه يستطيع إنتاج الوسط الناقل ولكن يفقد اللغة.

ثالثا : للأوساط الناقلة ثلاثة أنواع رئيسية أولها وأقدمها وأساسها الوسط المنطوق ثم الوسط المرئي ثم الوسط الملموس.

رابعا : للوسط الناقل خواص حيزية تتعلق بشغل الوسط لزمان أو مكان، وخواص فنية تتعلق بشكل الوسط الناقل وبتنوعه فنيا فالسجع والتنغيم الصوتي يظهران الناحية الفنية في الوسط المنطوق كما أن تحسين الخط واستعماله للزينة يظهر الناحية الفنية في الوسط المرئي.

خامسا : إن العلاقة بين اللغة والوسط الناقل لها علاقة اصطلاحية لاتخضع لمنطق، كما أن للوسط الناقل عوامل مساعدة تطورت بتطور الحضارة وتقدم التقنية.

---

(19) **دروس في الألسنية** : فرديناند دي سوسير. تعريب:صالح القرمادي وآخرون. الدار العربية للكتاب، ليبيا تونس، ص 41.